كامل كيلانى
أساطير العالم
الفيل الأبيض
دار المعارف

اهداءات ٢٠٠٢

أ/ رشاد كامل الكيلانى

القاهرة

كامل كيلاني

أساطير العالم

القصة الأولى

الفيل الأبيض

القصة الثانية

صياد الغزلان

الطبعة الثانية عشرة

دار المعارف

١ – « أَبُو الْحَجَّاجِ »

كانَتِ الْحَيَوانَاتُ تَتَكَلَّمُ فِي قَدِيمِ الزَّمانِ : أَعْنِي فِي الْعُصُورِ الْأُولَى الَّتِي انْقَضَى عَلَيْها آلافُ السِّنِينَ . كانَتْ تَتَكَلَّمُ كَما يَتَكَلَّمُ الْإِنْسَانُ . وَقَدْ عاشَ – فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ الْغابِرَةِ – جَمْهَرَةٌ مِنَ الْأَفْيالِ عِيشَةً رَغَدًا هَنِيئَةً ، فِي بعْضِ الْغاباتِ الْقَرِيبَةِ مِنْ جِبالِ « الْهَمَلايا » فِي الْهِنْدِ .

وَكانَتْ تلكَ الْأَفْيالُ جَمِيلَةَ الْمَنْظَرِ ، حَسَنَةَ الشَّكْلِ ، وَقَدْ فاقَها جَمِيعًا فِيلٌ يُدْعَى : « أَبا الْحَجَّاجِ » ، وَهُوَ أَبْيَضُ ، ضَخْمُ الْجُثَّةِ ، نَبِيلُ النَّفْسِ ؛ فَأَصْبَحَ بَيْنَ الْأَفْيالِ جَمِيعًا خَيْرَ مِثالٍ لِأَنْبَلِ الْمَزايا ، وَأَكْرَمِ الْأَخْلاقِ .

٢ – « أُمُّ شِبْلٍ »

أَمَّا « أُمُّ شِبْلٍ » – وَهِيَ أُمُّ ذٰلِكَ الْفِيلِ الْوَدِيعِ الْكَرِيمِ النَّفْسِ – فَقَدْ كانَتْ ، وَالْحَقُّ يُقالُ ، حَكِيمَةً مُجَرَّبَةً ، تَجْمَعُ

– إِلَى سُمُوِّ السَّجايا – بُعْدَ النَّظَرِ ، وَأصالَةَ الرَّأْى ، وَصِدْقَ الْفِراسَةِ (صِحَّةَ الِاسْتِدْلالِ مِنَ الظَّواهِرِ الْبادِيَةِ) . وَلٰكِنَّ الشَّيْخُوخَةَ أَقْعَدَتْها – لِسُوءِ الْحَظِّ – وَأَعْجَزَتْها عَنِ السَّيْرِ ، وَكُفَّ بَصَرُها (عَمِيَتْ) . فاشْتَدَّ عَجْزُها ، وَاجْتَمَعَتْ عَلَيْها آفاتُ الْهَرَمِ وَعِلَلُهُ ؛ فَلَبِثَتْ – فِى مكانِها – لا تَنْتَقِلُ خُطْوَةً ، وَلا تُحَرِّكُ قَدَمًا .

٣ – وَفاءُ « أَبِى الْحَجَّاجِ »

وَقَدْ كانَ وَفاءُ « أَبِى الْحَجَّاجِ » لِأُمِّهِ عَلَى أَحْسَنِ ما يَفِى وَلَدٌ بارٌّ لوالِدَتِهِ الْحَنُونِ . نَعَمْ ، عُنِيَ « أَبُو الْحَجَّاجِ » بِـ « أُمِّ شِبْلٍ » الْعِنايَةَ كُلَّها ، وَلَمْ يَأْلُ جُهْدًا فى إِسْعادِها وَبِرِّها ، وَتَلْبِيَةِ طِلْبَتِها .

وَكانَ « أَبُو الْحَجَّاجِ » يَخْرُجُ – كُلَّ يَوْمٍ – لِيَجْمَعَ لِأُمِّهِ الْعَجُوزِ أَطْيَبَ الْفَواكِهِ الْبَرِّيَّةِ اللَّذِيذَةِ الطَّعْمِ ، وَلا يَدَعُ لَها مَجالًا لِلتَّحَسُّرِ عَلَى أَيَّامِ شَبابِها الْأُولَى ؛ لِأَنَّهُ كانَ يَقُومُ لَها بِكُلِّ ما تَشْتَهِيهِ مِنْ أَلْوانِ الْأَطْعِمَةِ ، وَصُنُوفِ الْأَشْرِبَةِ .

٤ – لُصُوصُ ٱلأَفْيال

وَلٰكِنَّ أَمْرًا واحِدًا كانَ يُزْعِجُ « أَبا الْحَجّاجِ » وَيَهُمُّهُ ، وَيَمْلَأُ نَفْسَهُ حُزْنًا وَأَسًى؛ ذٰلِكَ : أَنَّهُ رَأَى كَثيرًا مِنَ الْأَفْيالِ الْأُخْرَى ، تَسْرِقُ طَعامَ أُمِّهِ ٱلْعَجُوزِ ، الَّتِي كُفَّ بَصَرُها ، وَاشْتَدَّ عَجْزُها .

وَقَدْ أَنَّبَهُمْ « أَبُو الْحَجّاجِ » عَلَى ذٰلِكَ مَرّاتٍ عِدَّةً ، وَأَظْهَرَ لَهُمْ – فِي أَجْلَى بَيانٍ، وَأَوْضَحِ أُسْلُوبٍ – أَنَّ عَمَلَهُمْ هٰذا غايَةٌ فِي النَّذالَةِ، وَلُؤْمِ الطَّبْعِ ، وَفَسادِ الْخُلُقِ ، وَحَذَّرَهُمْ مِنَ ٱلْعَوْدَةِ إِلَى مِثْلِ هٰذِهِ الْفَعْلَةِ الْمَمْقُوتَةِ الشَّنْعاءِ . وَلٰكِنَّ الْأَفْيالَ لَمْ تُقْلِعْ عَنْ عادَتِها ، وَلَمْ تَكُفَّ عَنْ سَرِقَةِ الطَّعامِ الَّذِي كانَ « أَبُو الْحَجّاجِ » يَكُدُّ – طُولَ يَوْمِهِ – لِيَجْمَعَهُ لِـ « أُمِّ شِبْلٍ » .

٥ – الْعُزْلَةُ

وَفِي ذاتِ يَوْمٍ ، ٱنْتَحَى « أَبُو الْحَجّاجِ » أُمَّهُ جانِبًا ، وَقالَ لَها مَحْزُونًا :

« لَقَدْ تَمادَى أَصْحابُنا الْأَفْيالُ فى جَوْرِهِمْ وَعُدْوانِهِمْ عَلَيْنا . وخَيْرٌ لِى وَلَكِ يا أُمَّاهُ — فيما أَرَى — أَنْ نَعِيشَ فى عُزْلَةٍ ، بَعِيدَيْنِ عَنْ هٰؤُلاءِ اللُّصُوصِ الْخائِنِينَ فإِذا رَأَيْتِ رَأْيِى ، وَرَضِيتِ عنْ هٰذا الاقْتِراحِ ؛ فَلا تَتوانَىْ فى الذَّهابِ مَعِى إِلى كَهْفٍ قَرِيبٍ ، قَدْ تَخَيَّرْتُهُ لِسُكْنانا جَمِيعًا ، وَهُوَ عَلَى مَسافَةٍ غَيْرِ بَعِيدَةٍ مِنْ هٰذِهِ الْغابَةِ . فَماذا أَنْتِ قائِلَةٌ ؟ »

فارْتاحَتْ « أُمُّ شِبْلٍ » لِهٰذا الاقْتِراحِ السَّدِيدِ ، وَلَمْ تُعارِضْ فى تَلْبِيَتِهِ ، وسارتْ — مِنْ فَوْرِها — إِلَى حَيْثُ يَقُودُها « أَبُو الْحَجَّاجِ » ، حَتَّى وصَلا إِلى مَأْواهُما الْجَدِيدِ ، واسْتَقَرَّا فى الْكَهْفِ .

وكانَ الْكَهْفُ حَسَنَ الْمَوْقِعِ ، قَرِيبًا مِنْ بَعْضِ الْمُرُوجِ الْمُخْصِبَةِ ، الْمَمْلُوءَةِ بِأَطْيَبِ الْفواكِهِ الْبَرِّيَّةِ ، وأَشْهَى الثِّمارِ اللَّذِيذَةِ ، وَإِلَى جانِبِهِ بُحَيْرَةٌ صَغِيرَةٌ ، مُغَطَّاةٌ بِأَزاهِيرِ « اللُّوتَسِ » ، حَيْثُ عاشَ « أَبُو الْحَجَّاجِ » مَعَ أُمِّهِ زَمَنًا طَوِيلًا ، آمِنَيْنِ وادِعَيْنِ ، قَرِيرَىِ الْعَيْنِ ، ناعِمَىِ الْبالِ ، لَمْ يُكَدِّرْ صَفْوَهُما أَىُّ كَدَرٍ .

٦ – نَصيحَةُ « أُمِّ شِبْلٍ »

وَذاتَ مَساءٍ كانَ « أَبُو الْحَجّاجِ » يَتَحَدَّثُ إِلَى « أُمِّ شِبْلٍ » فى الْغارِ – عَلَى عادَتِهِما – وَيَخُوضانِ شَتَّى الْأَسْمارِ وَمُخْتَلِفِ الذِّكْرَياتِ. وَإِنَّهُما لَكَذٰلِكَ ، إِذْ طَرَقَ آذانَهُما صِياحٌ عالٍ يُدَوِّى فِى الْغابَةِ عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْهُما. فَقالَ « أَبُو الْحَجّاجِ » :

« أَلا تَسْمَعِينَ – يا أُمّاهُ – إِلَى هٰذِهِ الصَّيْحاتِ الْعالِيَةِ ؟ إِنَّها – بِلا رَيْبٍ – صَيْحاتُ إِنْسانٍ يَطْلُبُ النَّجْدَةَ ، وَيَلْتَمِسُ الْغَوْثَ ، وَلَعَلَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَقَعَ فَرِيسَةً فى قَبْضَةِ أَحَدِ أَعْدائِه. وَلا بُدَّ لى مِنَ الْإِسْراعِ إِلَيْهِ ، لَعَلِّى أَسْتَطِيعُ إِنْقاذَهُ مِنَ الْهَلاكِ . »

فَقالَتْ لَهُ « أُمُّ شِبْلٍ » ، وَهِىَ تُحَذِّرُهُ عاقِبَةَ هٰذا الْأَمْرِ ، وَتَزْجُرُهُ عَنِ التَّعَرُّضِ لَهُ :

« كَلّا – يا وَلَدِى – لا تَفْعَلْ ؛ فَإِنِّى – وَإِنْ رَأَيْتَنِى عَجُوزًا عَمْياءَ ، وَذٰلِكَ حَقٌّ لا رَيْبَ فِيهِ – أَعْلَمُ عِلْمَ الْيَقِينِ غَدْرَ الْآدَمِيِّينَ بِنا ، وَإِيقاعَهُمْ بِجِنْسِنا ، وَتَفَنُّنَهُمْ فى طُرُقِ الِاحْتِيالِ عَلَى صَيْدِنا .

وَإِنَّنِي لَأُؤَكِّدُ لَكَ أَنَّكَ إِذا أَنْقَذْتَ هٰذَا الْإِنْسانَ التَّاعِسَ الْمِسْكِين ، وَخَلَّصْتَهُ مِنَ الْهَلاكِ ، فَلَنْ يُقابِلَ هٰذا الْإِحْسانَ بِغَيْرِ الْإِساءَةِ والْجُحُودِ ، وَالْخِيانَةِ والْكُنُودِ . »

٧ — مُخالَفَةُ النَّصِيحَةِ

وَلٰكِنَّ « أَبا الْحَجَّاجِ » لَمْ يُصْغِ إِلَى نَصِيحَةِ أُمِّهِ ، وَلَمْ يُطِقِ الْبَقاءَ إِلى جانِبِها ، وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَن يَتَلَكَّأَ فى إِغاثَةِ الْبائِسِ الْمَلْهُوفِ ، وَأَبَى إِلَّا أَنْ يُنْقِذَهُ مِمَّا أَلَمَّ بِهِ ؛ فَقالَ « لِأُمِّ شِبْلٍ » مُتَلَطِّفًا :

« اِغْفِرِى لِى — يا أُمَّاهُ — أَنْ أُخالِفَ نُصْحَكِ لِلْمَرَّةِ الْأُولَى فِى حَياتِى ؛ فَلَيْسَ فِى وُسْعِى أَنْ أَكُفَّ عَنْ مُعاوَنَةِ طالِبِ نَجْدَةٍ أَيًّا كانَ جِنْسُهُ ، وَلَنْ أُطِيقَ سَماعَ هٰذِهِ الصَّيْحاتِ الْعالِيَةِ الْمُؤْلِمَةِ ، دُونَ أَنْ أَبْذُلَ جُهْدِى فى إِنْقاذِ صاحِبِها مِنْ مَأْزِقِهِ . »

٨ — حَدِيثُ الْحَطَّابِ

ثُمَّ أَسْرَعَ « أَبُو الْحَجَّاجِ » صَوْبَ الْجِهَةِ الَّتِى انْبَعَثَتْ مِنْها الصَّيْحاتُ ؛ حَتَّى إِذا بَلَغَ بُحَيْرَةَ « اللُّوتَسِ » ، لَمَحَتْ عَيْناهُ رَجُلًا يَلْبَسُ ثِيابَ
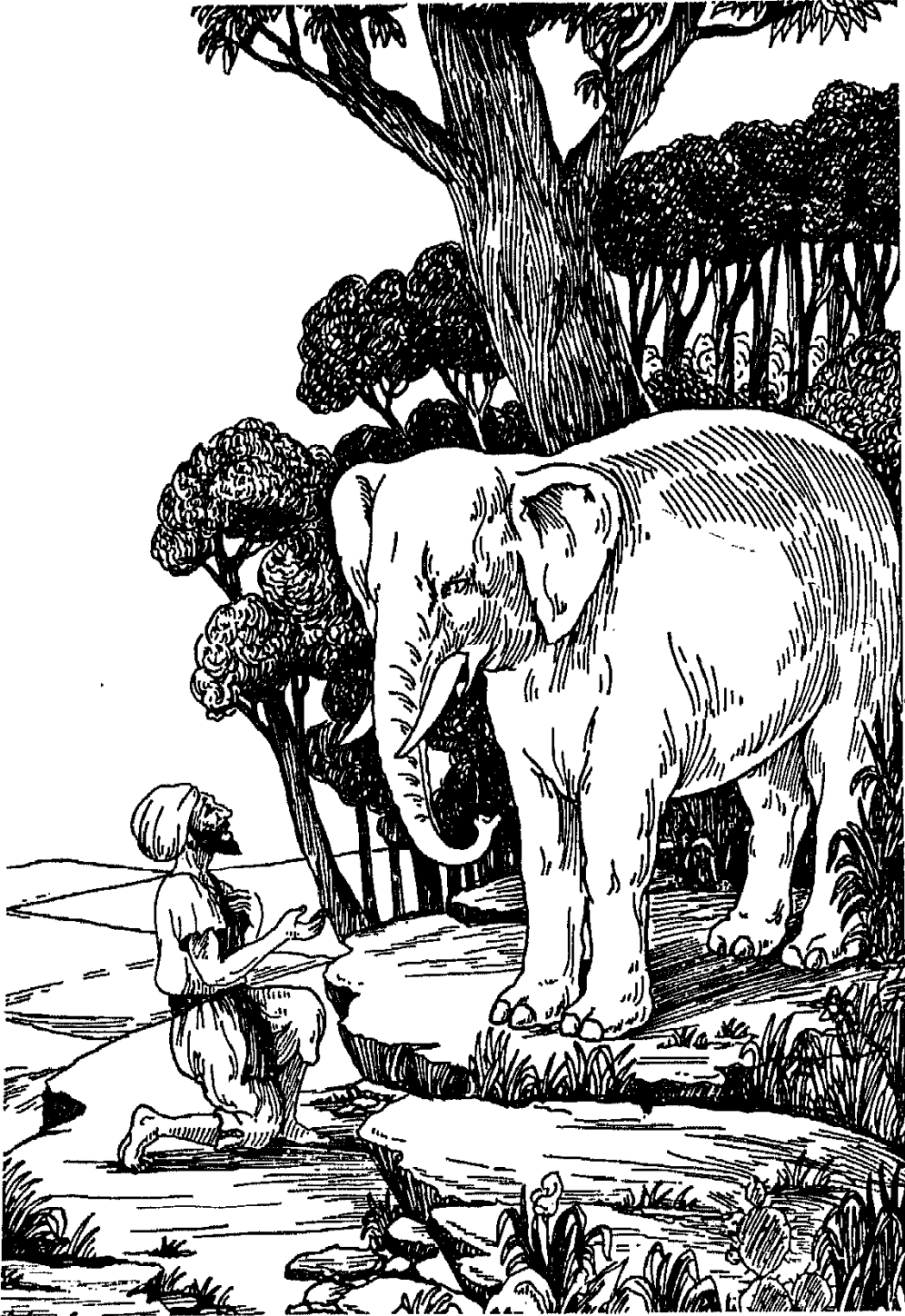
الْحَطَّابِينَ. وَلَمْ يَكَدْ «أبو الْحَجَّاجِ» يَدْنُو مِنْهُ، حَتَّى هَمَّ الرَّجُلُ بِالْفِرارِ مِنْ شِدَّةِ الرُّعْبِ وَالْخَوْفِ. ولٰكنَّ «أبا الْحَجَّاجِ» قالَ لَهُ مُتلَطِّفًا:

«لا تَخْشَ مِنِّي شَيْئًا - أَيُّها الْغَرِيبُ - وحَدِّثْنِي بِحَدِيثِكَ لأَتَعَرَّفَ قِصَّتَكَ؛ فَما جِئْتُ إِلَّا لِإِنْقاذِكَ مِنْ وَرْطَتِكَ. وَلَعلِّي قادِرٌ عَلَى تَخْفِيفِ أَلَمِكَ، وَدَفْعِ شِكايَتِكَ.»

فَقال لَهُ الْحَطَّابُ، وهُوَ شارِدُ الْفِكْرِ:

«وأَسَفاهُ، أَيُّها الْفِيلُ الْأَبْيَضُ النَّبِيلُ الْكَرِيمُ النَّفْسِ! أَلا لَيْتَكَ قادِرٌ عَلَى إِغاثَتِي وَإِنْقاذِي مِمَّا أَنا فِيهِ؛ فَقَدْ ضَلَلْتُ طَرِيقِي — مُنْذُ سَبْعَةِ أَيَّامٍ كامِلَةٍ — فِي هٰذِهِ الْغابَةِ الْواسِعَةِ الْمُوحِشَةِ، الَّتِي لا يَقْطُنُها أَحَدٌ مِنْ بَنِي الْإِنْسانِ، وَيَئِسْتُ مِنَ الْعَوْدَةِ إِلَى مَدِينَةِ «بَنارِسَ»؛ فَمَنْ لِي بِمَنْ يَهْدِينِي سَواءَ السَّبِيلِ؟»

فَقالَ لَهُ «أَبُو الْحَجَّاجِ»، وَقَدِ امْتَلَأَتْ نَفْسُهُ سُرُورًا وَغِبْطَةً، لِقُدْرَتِهِ عَلَى مُساعَدَتِهِ:

«ما أَيْسَرَ ما تَطْلُبُهُ، أَيُّها الْحَطَّابُ. فلَيْسَ عَلَيْكَ إِلَّا أَنْ تَرْكَبَ ظَهْرِي، لِأَحْمِلَكَ إِلَى حَيْثُ يَعِيشُ أَبْناءُ جِنْسِكَ مِنَ النَّاسِ.»

٩ — صَنِيعُ ٱلْفِيلِ

فَابْتَهَجَ الْحَطَّابُ بِذٰلِكَ أَشَدَّ الابْتِهاجِ ، وَقَفَزَ عَلَى ظَهْرِ ٱلْفِيلِ ٱلْأَبْيَضِ فَرِحًا مَسْرُورًا . ثُمَّ ٱنْطَلَقَ «أَبُو الْحَجَّاجِ » يَعْدُو بِهِ مُسْرِعًا — خِلالَ ٱلْغابَةِ ٱلْواسِعَةِ ٱلْأَرْجاءِ — حَتَّى بَلَغا مَدِينَةَ « بَنارِسَ » .

فَقالَ لَهُ « أَبُو الْحَجَّاجِ » :

« لَمْ يَبْقَ عَلَيْكَ — أَيُّها الْحَطَّابُ — إِلَّا بُرْهَةٌ قَلِيلَةٌ ، لِتَصِلَ إِلَى بَيْتِكَ ؛ فَإِنَّ مَدِينَةَ « بَنارِسَ » — كَما تَراها — قَرِيبَةٌ مِنْكَ ، وَلَيْسَ بَيْنَكَ وَبَيْنَها إِلَّا خُطُواتٌ مَعْدُودَةٌ . »

فَهَمَّ ٱلْحَطَّابُ بِأَنْ يَشْكُرَ لِلْفِيلِ ٱلنَّبِيلِ هٰذِهِ ٱلْيَدَ الْبَيْضاءَ الَّتِي أَسْداها إِلَيْهِ ، إِذْ أَنْقَذَهُ مِنَ ٱلْهَلاكِ الْمُحَقَّقِ ، وَهَداهُ إِلى ٱلطَّرِيقِ بَعْدَ أَنْ ضَلَّ . وَلٰكِنَّ « أَبا الْحَجَّاجِ » ٱبْتَدَرَهُ قائِلًا :

« كَلَّا ، لا تَشْكُرْ لِي صَنِيعِي ؛ فَإِنِّي لَقَرِيرُ الْعَيْنِ ، مُنْشَرِحُ الصَّدْرِ بِما فَعَلْتُهُ ؛ فَقَدْ أُتِيحَتْ لِي فُرْصَةٌ ثَمِينَةٌ ، لِأَداءِ واجِبِي فِي مُعاوَنَةِ بائِسٍ مَلْهُوفٍ ، وَإِنْقاذِ ضالٍّ حائِرٍ ، بَعْدَ أَنْ تَقَطَّعَتْ بِهِ ٱلْأَسْبابُ . »

ثُمَّ عادَ « أَبُو الْحَجَّاجِ » إِلَى كَهْفِهِ الْبَعِيدِ ، وَهُوَ مُبْتَهِجٌ بِما أَسْداهُ إِلَى الْحَطَّابِ الْمِسْكِينِ مِنْ صَنِيعٍ . وَلَمْ يَدْرِ الْفِيلُ النَّبِيلُ ما يَخْبَؤُهُ لَهُ الْقَدَرُ مِنْ أَحْداثٍ وَخُطُوبٍ ، وَلَمْ يَدُرْ بِخَلَدِهِ أَنَّ الْخَيْرَ قَدْ يَجْلُبُ الشَّرَّ ، وَأَنَّ الْإِحْسانَ قَدْ يُجْزَى عَلَيْهِ بِالْإِساءَةِ وَالْجُحُودِ .

١٠ — غَدْرُ الْحَطّابِ

وَكانَ الْحَطَّابُ — لِسُوءِ حَظِّ « أَبِي الْحَجَّاجِ » — غادِرًا ، خَبِيثَ النَّفْسِ ، لَئِيمَ الطَّبْعِ . وَقَدْ وَسْوَسَ لَهُ الشَّيْطانُ ، فَجَرَّهُ الطَّمَعُ إِلَى الْخَدِيعَةِ وَالْخِيانَةِ ، وَزَيَّنَتْ لَهُ نَفْسُهُ الْخَبِيثَةُ أَنْ يَغْدِرَ بِصاحِبِهِ ، وَيَجْزِيَهُ عَلَى إِحْسانِهِ أَقْبَحَ الْجَزاءِ .

وَلَمْ يَبْقَ فِي خاطِرِهِ أَنَّ « أَبا الْحَجَّاجِ » قَدْ أَنْقَذَهُ مِنْ حَيْرَتِهِ وَضَلالِهِ ، وَوَقاهُ عادِيَةَ الْهَلاكِ ، وَأَنَّهُ — لِذٰلِكَ — جَدِيرٌ بِالثَّناءِ ، لِبِرِّهِ بِهِ وَعَطْفِهِ عَلَيْهِ ؛ بَلْ شَغَلَهُ الطَّمَعُ عَنِ الْوَفاءِ ، وَسَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ الْغادِرَةُ أَنْ يَكْفُرَ بِتِلْكَ النِّعْمَةِ ، وَيَجْحَدَ ذٰلِكَ الْإِحْسانَ ، فَقالَ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ :

« لَقَدْ هَلَكَ ٱلْفِيلُ ٱلْأَبْيَضُ ٱلَّذى كان فى قَصْرِ مَلِكِ « بَنارِسَ » ، قُبَيْلَ خُرُوجِى مِنَ ٱلْمَدِينَةِ بِأَيَّامٍ ، وَلا شَكَّ أَنَّ ٱلْمَلِكَ سَيُكافِئُنِي أَجْزَلَ مُكافَأَةٍ ، إذا اسْتَطَعْتُ أَنْ أُوقِعَ هٰذا الفِيلَ فى قَبْضَتِي أَسِيرًا ، وَأُقَدِّمَهُ لِلْمَلِكِ هَدِيَّةً ثَمِينَةً . »

وَما لَبِثَتْ هٰذِهِ ٱلْفِكْرَةُ ٱلجارِمَةُ أَنْ أَصْبَحَتْ عَزْمًا وَتَصْمِيمًا ، فراحَ الْحَطَّابُ يُنْعِمُ بَصَرَهُ فِى تِلْكَ الطَّرِيقِ الَّتِي سَلَكَها « أَبُو الْحَجَّاجِ » ، وَظَلَّ يُجِيلُ لِحاظَهُ فِى أَشْجارِها ٱلعالِيَةِ ، وَتِلالِها ٱلمُرْتَفِعَةِ ، وَهِضابِها الشَّاهِقَةِ ، الَّتِي يَمُرُّ عَلَيْها فِى أَثْناء السَّيْرِ ؛ حَتَّى لا يَضِلَّ طَرِيقَهُ إذا هَمَّ بالْعَوْدَةِ إِلَيْها مَرَّةً أُخْرَى . وَما زالَ كَذٰلِكَ حتَّى حَذَقَها ، وَتَعَرَّفَ طَرائِقَها جَمِيعًا .

١١ — بَيْنَ يَدَي ٱلملِكِ

وَلَمْ يَكَدِ الْحَطَّابُ يَصِلُ إلى « بَنارِسَ » ، حَتَّى مَثَلَ بَيْنَ يَدَيِ ٱلْمَلِكِ ، وَقالَ لَهُ مَسْرُورًا :

« لقَدِ اهْتَدَيْتُ إلى ٱلْفِيلِ ٱلأَبْيضِ الْجَدِيرِ بِأَنْ يَحُلَّ مَكانَ

« أَبِي كُلْثُومٍ » : ذٰلِكَ الْفِيلِ ٱلْهالكِ الذى فَقَدَهُ مَوْلاىَ ، وَحَزِنَ لِفَقْدِهِ حُزْنًا شَدِيدًا . »

وَظَلَّ الْحَطَّابُ يَصِفُ لِمَلِكِ « بَنارِسَ » جَمالَ « أَبِي الْحَجَّاج » ، وَيُطْنِبُ لَهُ فِي تَعْدادِ مَزاياهُ وَمَناقِبِهِ ، حَتَّى أُعْجِبَ بِهِ ٱلْمَلِكُ — عَلَى السَّماعِ — وَقالَ لِلْحَطَّابِ :

« لَيْسَ أَشْهَى إِلَى نَفْسِي مِنَ ٱلْحُصُولِ عَلَى هٰذا ٱلْفِيلِ الظَّرِيفِ الَّذِي تَصِفُهُ لِي . فارْجِعْ إِلَى ٱلْغابَةِ — مِنْ فَوْرِكَ — فِي عِصابَةٍ مِنْ مَهَرَةِ صَيَّادِي ٱلْفِيَلَةِ الْمَشْهُورِينَ فِي مَدِينَتِي . وَمَتَى نَجَحْتُمْ فِى صَيْدِ الْفِيلِ ٱلْأَبْيَضِ ، فَإِنِّي مُكافِئُكَ وَمُكافِئُهُمْ عَلَى ذٰلِكَ أَجْزَلَ مُكافَأَةٍ . »

١٢ — عِنْدَ بُحَيْرَةِ « اللُّوتَسِ »

فابْتَهَجَ الْحَطَّابُ بِما سَمِعَ ، وأَسْرَعَ — فى رِفاقَةِ الصَّيَّادِينَ — يَقُودُهُمْ فى شِعابِ ٱلْغابَةِ ، ويُرْشِدُهُمْ إِلَى الطَّرائِقِ ٱلْمُوَصِّلَةِ إِلَى كَهْفِ « أَبِي الْحَجَّاج » ، حَتَّى بَلَغُوا بُحَيْرَةَ « اللُّوتَس » بِلا مَشَقَّةٍ ، حَيْثُ

وجدُوا « أَبا الْحَجَّاج » يَجْمَعُ الْفاكِهَةَ لِعَشاء أُمِّهِ الْعَجُوز .

وَلَمْ يَكَدْ « أبو الْحجّاج » يَسْمَعُ وَقْعَ خُطُواتِهِمْ ، حَتَّى رَفَعَ إِلَيْهِمْ رَأْسَهُ ، وَأَجالَ فِيهِمْ بَصَرَهُ ؛ فَلَمَحَ صاحِبَهُ الْحَطَّابَ بَيْنَ صَيَّادِي الْأَفْيالِ . فَأَدْرَكَ الفِيلُ الذَّكِيُّ أَنَّ الْحَطَّابَ قَدْ غَدَرَ بِهِ ، وَجازاهُ عَلَى مَعْرُوفِهِ أَلْأَمَ جَزاء . وَتَحَقَّقَ لَهُ كَلامُ أُمِّهِ ، ونَدِمَ عَلَى مُخالَفَتِهِ نَصِيحَتَها الثَّمِينَةَ حِينَ لا يَنْفَعُ النَّدَمُ .

١٣ – فِي الْأَسْرِ

وَأَرادَ «أبُو الْحَجَّاج» أَنْ يَهْرُبَ ؛ حَتَّى لا يَقَعَ فِي قَبْضَتِهِمْ أَسِيرًا . ولٰكِنَّ الصَّيادِينَ الْأَذْكِياءَ الْمُدَرَّبِينَ عَلَى صَيْدِ الْفِيَلَةِ ، عَدَوْا فِي أَثَرِهِ وَضَيَّقُوا عَلَيْهِ مَسالِكَ الْهَرَبِ ، وَسَدُّوا مَنافِذَ الطَّرِيق ، وَبَذَلوا كُلَّ ما فى وُسْعِهِمْ – مِنْ حِيلَةٍ وَمَهارَةٍ – حَتى أَوْقَعُوهُ فى شِباكِهِمْ أَسِيرًا . ثُمَّ سارُوا بِهِ فى طَرِيقِهِمْ إِلَى مَدِينَةِ « بَنارِسَ » ، مَسْرُورِينَ مَزْهُوِّينَ بِما وُفِّقُوا إِلَيْهِ مِنْ فَوْزٍ وانْتِصار .

١٤ – حُزْنُ « أُمِّ شِبْلٍ »

وظَلَّتْ « أُمُّ شِبْلٍ » الْمِسْكِينَةُ جاثِمَةً فِي كَهْفِها تَرْتَقِبُ عَوْدَةَ وَحيدِها « أَبِي الْحَجَّاج » ، حَتى جاءَ اللَّيْلُ ولَمْ يَعُدْ إِلَيْها ؛ فَتَوَجَّسَتْ شَرًّا ، وَساوَرَتْ نَفْسَها الْهُمُومُ والْأَحْزان ، وخَشِيَتْ أَنْ يكُونَ قَدْ أصابَهُ سُوءٌ ، أوْ لَحِقَ بِهِ أذًى .

ولَمَّا طالَتْ غَيْبَةُ « أَبِي الْحَجَّاج » ، أَيْقَنَتْ « أُمُّ شِبْلٍ » الْعَجُوزُ أَنَّهُ قَدْ وَقَعَ أَسِيرًا فِي قَبْضَةِ الصَّيَّادِين ؛ فَوَلْوَلَتْ وَبَكَتْ ، وَظَلَّتْ تَنْدُبُ حَظَّها التَّاعِسَ ، وَتَقُولُ فِي نَفْسِها مَحْزُونَةً مُتَحَسِّرَةً :

« الْوَيْلُ لِي مِنْ بَعْدِكَ ، يا « أَبا الْحَجَّاج » . فَما أَدْرِي : كَيْفَ أَصْنَعُ بَعْدَ أَنْ فَقَدْتُ مَعُونَتَكَ ، وَحُرِمْتُ بِرَّكَ بِي ، وَعَطْفَكَ عَلَيَّ ؟ وَما أَعْرِفُ : كَيْفَ أَعِيشُ فِي هٰذِهِ الْعُزْلَةِ ، وَلَيْسَ لِي مَنْ يُطْعِمُنِي تِلْكَ الْفاكِهَةَ الشَّهِيَّةَ ، أوْ يَهْدِينِي إلى بُحَيْرَةِ « اللُّوتَسِ » ، لِأَرْوِيَ مِنْها ظَمَئِي إذا عَطِشْتُ ؟ أَلَا إِنَّنِي – مِنْ بَعْدِكَ يا « أَبا الْحَجَّاج » – لا شَكَّ هالِكَةٌ جُوعًا وَعطَشًا ، فِي هٰذِهِ الْبُقْعَةِ النَّائِيَةِ ! فَيا لَيْتَنا تَنَبَّأْنا

بِهٰذا الْمُصابِ قَبْلَ وُقُوعِه ، وَفَطَنَّا إلى هٰذِهِ الْكارِثَةِ ، وَعرَفْنا عَواقِبَ الْأُمُورِ قَبْلَ أنْ تَحُلَّ بِنا مُفاجِئَةً ، وَتَنْزِلَ بِنا عَلَى غِرَّةٍ . وَيا لَيْتَنا لَبِثْنا - حيثُ كُنَّا - آمِنَيْنِ ، لا يُرَوِّعُنا عَدُوٌّ ، وَلا يَجْرُؤُ عَلَى الدُّنُوِّ مِنَّا كائِنٌ كان ! . . . »

١٥ — حُزْنُ « أَبِي الْحَجَّاج »

أمَّا جَزَعُ « أَبِي الْحَجَّاج » وحُزْنُه ، فَقَدْ فاقا جَزَعَ أُمِّهِ وحُزْنَها . فَلَقَدْ بَرَّحَ بِهِ الْوَجْدُ ، واشْتَدَّ بِهِ الْأَلَم ، لِوَحْدَةِ أُمِّهِ وَضَعْفِها ، وعَجْزِها عَنِ الْحَياةِ مِنْ بَعْدِه . وظَلَّ يَقُولُ فى نَفْسِه ، وهُوَ سائِرٌ فِي طَرِيقِهِ إلى حَيْثُ يَقُودُهُ صَيَّادُوهُ الْأَشِدَّاءُ :

« لَكِ اللهُ ، يا « أُمَّ شِبْلٍ » ! فَما أَدْرِى : كَيْفَ تُصْبِحِينَ فى مَحَلِّكِ بَعْدِى ، أَيَّتُها الْأُمُّ الْحَنُونُ الْبارَّةُ ؟ ألا لَيْتَنِى أَصْغَيْتُ إلى نَصِيحَتِكِ ، وَقَبِلْتُ رَأْيَكِ ، وَلَمْ أُخالِفْ مَشُورَتَكِ . إِذَنْ غَنِمْتُ السَّلامَةَ والتَّوْفِيق ، وَنَجَوْتُ مِنَ الْغَدْرِ والْجُحُود .

لَقَدْ حَذَّرْتِنى - يا أُمَّاهُ - كَيْدَ الْإِنْسانِ وجُحُودَه ؛ فَلَمْ أُصْغِ

إلى نصيحَتِك ، وَلَمْ أَنْتَفعْ بِتَحْذِيرِك . وَلَوْ أنَّني سَمِعْتُ مَقالَتَك ، وأَخَذْتُ بِرَأْيِكِ السّديد ؛ لَعِشْتُ طُولَ عُمْرِى هانِئًا وادِعًا ، ناعِمًا بِالْحُرِّيَّةِ بِجِوارِكِ ، وَلَمْ أَقَعْ فى قَبْضَةِ هٰؤُلاءِ الْأَشْرارِ الْغادِرِين .

وَما أَدْرِى : كَيْفَ تَصْنَعِين — يا أُمَّاه — بَعْدَ أَنْ تَقَطَّعَتْ بِكِ أَسْبابُ الْحَياة ، وَفَقَدْتِ ناصِرَكِ الْوَفِىَّ الْأَمِينَ ، وحُرِمْتِ وَلَدَكِ الصّادِقَ الْمُعِينَ ؟ ... »

١٦ — مُكافَأَةُ الْمَلِكِ

وَلَمَّا مَثَلَ الصَّيّادُونَ والْحَطّابُ بيْنَ يَدَىِ الْمَلِكِ ، وَمَعَهُمُ الْفِيلُ الْأَبْيَضُ ، أُعْجِبَ الْمَلِكُ بِمَنْظَرِه ، وسُرَّ بِهِ سُرُورًا عَظِيمًا . وكانَتْ أَماراتُ الْكَآبَةِ والْحُزْنِ بادِيَةً عَلَى مَلامِحِ « أَبِى الْحَجّاج » ، ولٰكِنَّها لَمْ تَنَلْ مِنْ جَمالِ شَكْلِه ، وبَهاءِ مَنْظَرِه ؛ فَقالَ الْمَلِكُ :

« ما أَجْمَلَهُ فِيلًا رائِعَ الْمَنْظَرِ ، بَهِىَّ الْمَلامِح ، مُشْرِقَ الطَّلْعَةِ ! فَلَأَتَّخِذَنَّهُ — مُنْذُ الْيَوْم — مَرْكَبِى ؛ فَهوَ أَفْخَمُ فِيلٍ رَأَيْتُهُ أَوْ سَمِعْتُ بِهِ فى حَياتِى . »

ثُمَّ أَجْزَلَ الْمَلِكُ مُكافَأَةَ الْحَطّابِ والصَّيّادِين ، وأَمَرَ أَتْباعَهُ أَنْ يَتَخَيَّرُوا أَحْسَنَ مَكانٍ فى الإِصْطَبْلِ الْمَلَكِىِّ ؛ لِيَحُلَّ فِيهِ « أَبُو الْحَجّاج » ، كما أَمَرَهُمْ أَنْ يُحَلُّوهُ بأَثْمَنِ اللَّآلِئِ وأَنْفَسِ الْيَواقِيت .

١٧ — مَرَضُ « أَبِى الْحَجَّاج »

وَمَرَّتْ عَلَى هٰذا الْحادِثِ أَيَّامٌ قَلِيلَةٌ ، ثُمَّ أَرادَ الْمَلِكُ أَنْ يَرْكَبَ الْفِيلَ الْأَبْيَضَ ، وَيَطُوفَ بِهِ فى الْمَدِينَةِ ؛ فَقالَ لَهُ أَتْباعُهُ ، والْحُزْنُ بادٍ عَلَى وُجُوهِهِم :

« إِنَّ الْفِيلَ الْأَبْيَضَ — يا مَوْلانا — قَدْ مَرِضَ مَرَضًا خَطِيرًا ، وانْتابَهُ ضَعْفٌ شَدِيد ، وَهُو — مُنْذُ حَضَرَ أَرْضَنا — لَمْ يَذُقْ طَعامًا وَلا شَرابًا . وَقَدْ تَخَيَّرْنا لَهُ أَشْهَى الْأَطْعِمَةِ والْأَشْرِبَةِ مِنَ الْفاكِهَةِ والْحَشائِش ، فَلَمْ يَذُقْ مِنْها شَيْئًا . »

فارْتاعَ الْمَلِكُ لِهٰذا النَّبإِ ، وَأَسْرَع — فى الْحال — إِلَى الإِصْطَبْل ؛ فَرَأَى عَلَى وَجْهِ « أَبِى الْحَجَّاج » سِيما الْكَدَرِ والْهَمِّ ، فَصاحَ بِهِ قائِلًا :

« ما بالُكَ — أَيُّها الْفِيلُ الْكَرِيمُ — قَدْ تَغَيَّرَتْ مَلامِحُك ، وَسِيءَ
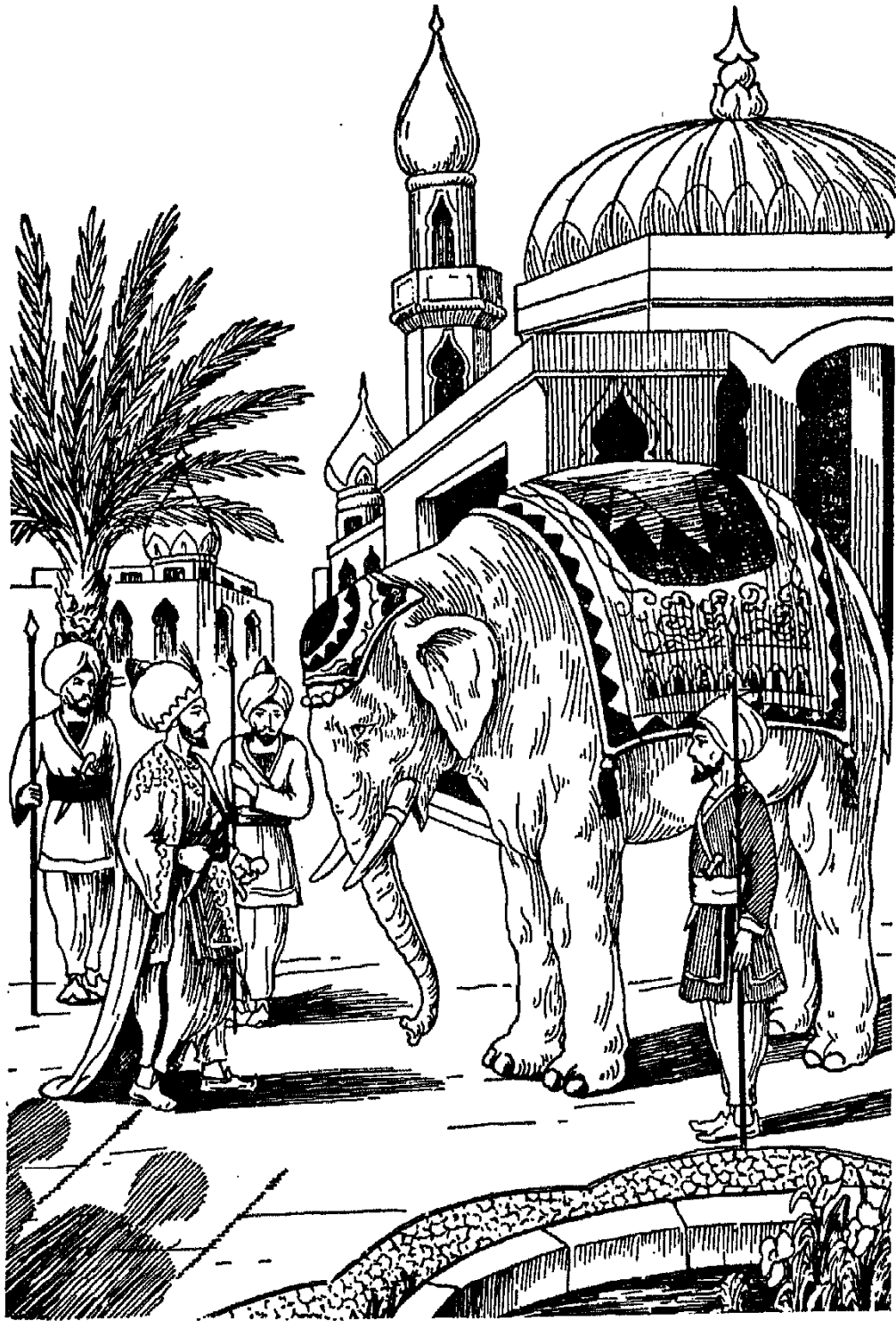
وَجْهك ، وَتَبَدَّلَتْ أطْوارُكَ ؟ أيُّ شَيْءٍ بَغَّضَ طَعامَنا وَشَرابَنا إلَيْك ؟ أَتُرَى خَدَمى قَدْ أَهْمَلُوا الْعِنايَةَ بِأَمْرِك ؟ أَمْ تُراهُم قَصَّرُوا فى تَخَيُّر ما يُرْضِيكَ مِنْ لَذائِذِ الأَطْعِمَةِ الَّتى تَشْتَهِيها نَفْسُك ؟ »

١٨ — شَكْوَى « أَبِي الْحَجَّاج »

فَهزَّ « أَبُو الْحَجَّاج » رَأْسَهُ الضَّخْمَ ، وَقالَ بِصَوْتٍ خافِتٍ ، قَدِ ارْتَسَمَتْ فيهِ نَبَراتُ الْحُزْنِ والأَسَى :

« كَلَّا ، يا مَوْلاى ! »

فَقالَ لَهُ الْمَلِك ، وَقَدِ اشْتَدَّ شَوْقُهُ إلى تَعَرُّفِ قِصَّتِه :

« خَبِّرْنى — فِي صَراحَةٍ — أَيُّها الْفِيلُ الْكَرِيمُ عَنْ سِرِّ هَمِّكَ وَاكْتِئابِك؛ فَإِنِّى باذِلٌ جُهْدِى فى إسْعادِكَ وَتَحْقيقِ أُمْنِيَّتِكَ ، إذا وَجَدْتُ إلى ذٰلِكَ سَبيلًا . »

فَقالَ « أَبو الْحَجَّاج » فِي لَهْجَةٍ حَزِينَةٍ :

« شُكْرًا لَكَ أَيُّها الْمَلِكُ الْعَظيمُ عَلَى عِنايَتِكَ بِأَمْرِى ، واهْتِمامِكَ بِشَأْنى . وَلَقَدْ سَأَلْتَنى عنْ مَصْدَرِ حُزْنِى ، واقْتَرَحْتَ

عَلَىَّ أَنْ أَتَمَنَّى عَلَيْكَ الْأَمانِىَّ . وَلَيْسَ لى من أُمْنِيَّةٍ فى هٰذهِ الْحياةِ أَعْظَمَ مِنْ أَنْ أَعُودَ إلى أُمِّىَ الْعَجُوزِ التَّاعِسَةِ الْعَمْياء، الَّتى تَرَكْتُها فى الْغابَةِ وَحيدَةً لا عائِلَ لها ، وَهِىَ تُوشِكُ أَنْ تَهْلِكَ جُوعًا وَعَطَشًا فى كَهْفِها . وَلَنْ أَطْعَمَ شَيْئًا بَعْدَها ، ولَنْ أَسْتَسِيغَ الزّادَ وهِىَ تَتَضَوَّرُ جُوعًا ، وَلا تَجِدُ إِلى الطَّعامِ سَبيلًا . »

فَسأَلهُ مَلِكُ « بَنارِسَ » عَنْ قِصَّته ؛ فَحَدَّثَهُ بها كُلِّها ، وَأَخْبَرَهُ بِانْتِقالِهِ هُوَ وَأُمُّهُ إلى مَكانٍ بَعيدٍ عَنْ قَطيعِ الْفِيَلَة ، وكَيْفَ عاشَ مَعَ أُمِّهِ أَسْعَدَ عَيْشٍ فى عُزْلةٍ وادِعَةٍ هَنيئَةٍ ؛ حَتَّى جاءَهُما الْحَطّابُ ، وَكانَ مَقْدَمُهُ عَلَيْهِما شُؤْمًا وَخَرابًا ؛ فَكَدَّرَ صَفْوَ عَيْشِهِما الرَّغِيدِ بِخِيانَتِهِ وَغَدْرِه .

١٩ — انْفِكاكٌ مِنَ الْأَسْرِ

كانَ مَلِكُ « بَنارِسَ » عادِلًا رَحيمًا ، يُؤْثِرُ الْإِنْصافَ ، وَيَرْتاحُ لِلْمَعْرُوفِ ؛ فَقَال لِلْفِيلِ الْأَبْيَضِ ، عَلَى شَغَفِهِ بِهِ ، وَرَغْبَتِهِ فى اسْتِبْقائِهِ : « أَيُّها الْحَيَوانُ النَّبِيلُ ! إنَّ طِيبَةَ قَلْبِكَ ، وَحُسْنَ طَوِيَّتِكَ ، قَدْ

أَظْهَرا — أَمامِي — خِسَّةَ الْجِنْسِ الآدَمِيِّ وَغَدْرَهُ. وَقَدْ أَطْلَقْتُ سَراحَكَ — مُنْذُ الآنَ — فعُدْ إِلَى أُمِّكَ وَارْعَها ، وَتَوَلَّ أَمْرَها ، وَثابِرْ عَلَى بِرِّكَ بِها ، وَعَطْفِكَ عَلَيْها ما حَيِيتَ . »

فَشَكَرَ لَهُ « أَبُو الْحَجَّاج » عَدالَتَهُ وكَرَمَه وَإِحْسانَه ، وقال له مُغْتَبِطًا فَرْحانَ : « لَنْ أَنْسَى لَكَ هٰذا الْجَمِيلَ ! »

٣٠ — اجْتِماعُ الشَّمْلِ

ثُم أَسْرَعَ « أَبو الْحَجَّاج » فِي طَرِيقِهِ إِلى كَهْفِ أُمِّهِ ، عَلَى ما بِهِ مِنْ ضَعْفٍ وهُزالٍ، وجُوعٍ وعَطَشٍ. وَلا تَسَلْ عَنْ فَرَحِهِ وَابْتِهاجِهِ حِينَ رَأَى أُمَّهُ لا تَزالُ عَلَى قَيْدِ الْحَياةِ . وَلا تَسَلْ عَنْ فَرَحِ « أُمِّ شِبْلٍ » بِوَلَدِها حِينَ عادَ إِلَيْها بَعْدَ يَأْسٍ مِنْ عَوْدَتِهِ !

وَلَمْ يَكَدْ يَسْتَقِرُّ بِهِ الْمُقامُ ، حَتَّى قَصَّ عَلَى أُمِّهِ كُلَّ ما حَدَثَ لَهُ فِي أَثْناءِ غَيْبَتِهِ . فقالَتْ له مُتأَلِّمَةً :

« لَقَدْ كان عليكَ — يا وَلَدِي — أَن تُصْغِيَ إِلَى نَصِيحَتِي ! فهلْ آمَنْتَ الآنَ بِغَدْرِ الآدَمِيِّينَ ، وجُحُودِ بَنِي الإِنْسانِ ؟ وهَلْ أَدْرَكْتَ

أَنَّ سُوءَ النِّيَّةِ — كَما حَدَّثْتُكَ — مُتَأَصِّلٌ فِي نُفُوسِهِمْ مُنْذُ الْقِدَمِ ؟ »

فَقال لَها « أَبو الْحَجَّاجِ » :

« لَيْسُوا جَمِيعًا خَوَنَةً وَغادِرِينَ — يا أُمَّاهُ — فَإِنَّ فِيهِمُ الطَّيِّبَ وَالْخَبِيثَ ، وَالْمُحْسِنَ وَالْمُسِيءَ . وَلَوْلا أَنَّ مَلِكَ « بَنارِسَ » عادِلٌ رَحِيمٌ ، سَرِيُّ النَّفْسِ ، لَما وَجَدْتُ إِلَى الْفَكاكِ مِنْ أَسْرِي سَبِيلًا طُولَ الْحَياةِ .

وَما أَحْسَنَ أَنْ نَنْسَى — يا أُمَّاهُ — غَدْرَ الْحَطّابِ ، وَلا نَذْكُرَ إِلَّا كَرَمَ الْمَلِكِ وَإِحْسانَهُ ؛ فَإِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ . »

٢١ — خاتِمَةُ الْقِصَّةِ

وَقَدْ بَرَّ « أَبو الْحَجَّاجِ » بِما قالَ ، وَنَسِيَ — مُنْذُ ذٰلِكَ الْيَوْمِ — غَدْرَ الْحَطَّابِ وَخِيانَتَهُ ، وَجُحُودَهُ وَإِساءَتَهُ .

وَلٰكِنَّهُ ظَلَّ — حَياتَهُ كُلَّها — يَذْكُرُ صَنِيعَ مَلِكِ « بَنارِسَ » ، وَيَشْكُرُ لَهُ مَعْرُوفَهُ الَّذِي أَسْداهُ ، وَلا يَنْساهُ .

القصة التالية : صياد النزلان

٢ — فى ذِرْوَةِ الْجَبَلِ

قال « دِيماسُ » :

« كُنْتُ أَرْتَقِى بعضَ الْجِبالِ الْعالِيَةِ ، وَأُصَعِّدُ فِى شَمارِيخِ الذُّرَى (رُءُوسِ الْجِبالِ) ، وَمَعِى دَلِيلٌ أمِينٌ ، خَبِيرٌ بِالطَّرِيقِ ، عارِفٌ بِأَسالِيبِها وَمُنْعَرِجاتِها ، وَسُهُولِها وَحُزُونِها . فَلَمَّا بَلَغْنا ذِرْوَةَ الْجَبَلِ ، صَعِدَ بِى ذٰلِكَ الدَّلِيلُ قِمَّةَ صَخْرَةٍ عالِيَةٍ ، مُشْرِفَةٍ عَلَى أَحَدِ الْوِدْيانِ السَّحِيقَةِ (وَهِىَ : الطُّرُقُ الْمُنْخَفِضَةُ بَيْنَ كُلِّ جَبَلَيْنِ) . ولَمَّا بَلَغْنا تِلْكَ الْقِمَّةَ الشَّاهِقَةَ — وَهِىَ مُرْتَفِعَةٌ عَنْ أَرْضِ الْوَادِى بِأَكْثَرَ مِنْ ثَلاثَةِ آلافِ قَدَمٍ — قَصَّ الدَّلِيلُ عَلَىَّ هٰذِهِ الْأُسْطُورَةَ الْجَمِيلَةَ ، وَهُوَ مُتَرَدِّدٌ بَيْنَ تَصْدِيقِها وَتَكْذِيبِها ، كَما تَنُمُّ بِذٰلِكَ لَهْجَتُهُ فى قَصِّها ، وَتَشَكُّكُهُ فى أثْناءِ رِوايَتِها عَلَىَّ .

وَإِلَيْكَ حَدِيثَ الدَّلِيلِ :

٣ — شَيْخُ الْجَبَلِ

عَلَى قِمَّةِ هٰذِهِ الصَّخْرَةِ الشَّاهِقَةِ الْمُشْرِفَةِ عَلَى الْوادِى السَّحِيقِ ،

كانَ شَيْخُ الْجبَلِ يَقْطنُ فى الْأَزْمانِ السَّابِقَةِ .

وَكانَ هٰذا الشَّيْخُ شَفِيقًا ، رَحِيمًا بِالنَّاسِ ، يُحِبُّ الْخَيْرَ والْبِرَّ ، وَيمْقُتُ الْأَذَى وَالشَّرَّ . وَلَمْ يَكُنْ يَلْقَى بائِسًا — فى طَرِيقِهِ — إِلَّا أَعانَهُ وَأَرْضاهُ ، وَلا مُعْوِزًا إِلَّا أَغاثَهُ وَأَغْناهُ .

وَلٰكِنَّهُ — عَلَى ذٰلِكَ — كان يُؤْثِرُ الْأَخْيارَ ، وَيَمْقُتُ الْأَشْرارَ ، وَيُعجَبُ بِالصَّادِقِينَ ، وَيَكْرَهُ الْكَذِبَ وَذَوِيه ، وَلا يُعِينُ إِلَّا مَنْ يَتَوَسَّمُ فيهِ حُبَّ الِاسْتِقامَةِ وَالصَّلاح .

٤ — الصَّيَّادُ والظَّبْيَةُ

وكانَ يَعِيشُ فِى هٰذِهِ الْبِلادِ — فِى ذٰلِكَ الزَّمَنِ الْغابِرِ — صَيَّادٌ فَقِيرٌ ، لا يَظْفَرُ بِالْقُوتِ إِلَّا بِشِقِّ النَّفْسِ ، شَأْنُ أَمْثالِهِ مِنَ الصَّيَّادِينَ الَّذِينَ يَقْطُنُونَ الْجِبالَ ، وَيَحْتَرِفُونَ الصَّيْدَ ، وَيَعِيشُونَ عَلَى ما يَصْطادُونَهُ فى هٰذِهِ الْأَنْحاء .

وَفِى ذاتِ يَوْمٍ خَرَجَ الصَّيَّادُ — عَلَى عادَتِهِ — وظَلَّ يَرْتادُ الْجَبَلَ حَتَّى سَنَحَتْ لَهُ الفُرْصَةُ ؛ إِذْ رَأَى أَمامَه ظَبْيَةً تَسْعَى إِلى رِزْقِها .

فابْتَهَجَ الصَّيّادُ بِهٰذِهِ الفُرْصَةِ ، وَجَعَلَ يَقْتَرِبُ مِنَ الظَّبْيَةِ ، حَتّى إذا داناها أحسّتْ وَقْعَ خُطُواتِه ، فَأَسْرَعَتْ بِالْفِرارِ ، وَجَرَتْ — مِنْ فَوْرِها — بِأَقصى سُرْعَتِها .

فَمَضَى الصَّيّادُ خَلْفَ الظَّبْيَةِ ، حتّى بَلَغا هٰذهِ الصَّخْرَةَ الْعالِيَةَ .

فَوَقَفَتِ الظَّبْيَةُ مُتَرَدِّدَةً حائرَةً — بَعْدَ أَنْ سُدَّتْ أمامَها مَسالِكُ الْهرَبِ — وَلَمْ يَبْقَ لَها خَلاصٌ مِنْ يَدِ الصَّيّادِ إلّا أنْ تَهْوِيَ مِنْ ذٰلِكَ العُلُوِّ الشّاهِقِ إلى الْوادِي السَّحِيق، فَتَلْقَى حَتْفَها وَشيكًا .

٥ — الصَّيّادُ وَشَيْخُ الْجَبَلِ

وَلَبِثَتِ الظَّبْيَةُ في مَكانِها ، تتَوَقَّعُ حَيْنَها (مَوْتَها) — بَيْنَ لَحْظَةٍ وَأُخْرَى — وَظَلَّتْ تَنْظُرُ إلَى الصَّيّادِ وَهُوَ يُدانِيها ، وَقَدْ سَرَتْ فِيها رِعْدَةٌ مِنَ الْخَوْفِ ، وارْتَسَمَ الْحُزْنُ عَلَى أساريرِ وَجْهِها . وَكانَ مَنْظَرُها مُؤَثِّرًا ، وَضَعْفُها ظاهِرًا ، وَلٰكِنَّ الصَّيّادَ لَم يَرْثِ لَها، وَلَمْ يَرحَمْ ضَعْفَها ، وَأَبَى إلّا صَيْدَها ؛ فَأَسْلَمَتِ الظَّبْيَةُ أَمرَها لِلّٰهِ، وَلَمْ تَرَ لَها حِيلَةً فِي مُدافَعَةِ هٰذا الْبلاء .

وَأَمْسَكَ الصَّيَّادُ بقَوْسِهِ، وَصَوَّبَها إِلَيْها . وَلَمْ يَكَدْ يَفْعَلُ ، حَتَّى رَأَى شَيْخًا حَسَنَ السَّمْتِ ، جَمِيلَ الْمَنْظَرِ ، قادِمًا عَلَيْهِ ؛ فَكَفَّ الصَّيَّادُ عَمَّا كَانَ يَهُمُّ بِهِ، لِيَعْرِفَ جَلِيَّةَ خَبَرِهِ .

ثم جَلَسَ الشَّيْخُ إلى جانِبِ الظَّبْيَةِ ؛ فارْتَمَتِ الظَّبْيَةُ تَحْتَ قَدَمَيِ الشَّيخِ ضارِعَةً إِلَيْهِ ، مُسْتَغِيثَةً بِهِ ، وَأَقْبَلَ عَلَيْها الشَّيْخُ يُطَمْئِنُها ، وَيُزِيلُ مِنْ مَخاوِفِها ، وَيُرَبِّتُها ، حَتَّى سَكَنَ مِنْ رَوْعِها (فَزَعِها) .

٦ — حِوارُ الشَّيْخِ

ثُمَّ الْتَفَتَ الشَّيْخُ إِلَى الصَّيَّادِ ، وقالَ لَهُ :

« ما الَّذِي جاءَ بِكَ إلى هُنا ؟ وَماذا أَقْدَمَك عَلَيْنا مِنْ وادِيكَ الْبَعِيدِ ؟ أَمَا كانَ لَكَ فى أَرْضِ ذٰلِكَ الْوادِي الْفَسِيحَةِ مَجالٌ واسِعٌ لِلصَّيدِ والْقَنْصِ ؟

وَكَيْفَ جَرُؤْتَ على مُطارَدَةِ هٰذِهِ الظَّبْيَةِ السَّكِينَةِ الْوادِعَةِ ؟ وبِأَيِّ حَقٍّ تُرَوِّعُها وَتُفَزِّعُها ؟

لَقَدْ تَرَكْتُكَ آمِنًا فِي وادِيكَ ، وَلَمْ أَنْزِلْ إلَى أَرْضِكَ ، وَأَبَى لِي شَرَفِي وَمُرُوءَتِي أَنْ أَعْتَدِيَ عَلَى ما تَحْوِيهِ بُيُوتُكُمْ — مَعْشَرَ الإِنْسِ — مِنْ دَجاجٍ وَماشِيَةٍ . فَما بالُكُمْ تُزْعِجُونَنا فِي دِيارِنا ، وَتَعْتَدُونَ عَلَى ظَبَياتِنا وَغِزْلانِنا ، وتُبَدِّلُونَ أَمْنَها خَوْفًا ، وَسُرُورَها حُزْنًا ؟ »

فَأَدْرَكَ الصَّيَّادُ أَنَّ ذٰلِكَ الشَّيْخَ الَّذِي يُحَدِّثُهُ وَيَعْنُفُ عَلَيْهِ فِي الْكَلامِ ، إنَّما هُوَ شَيْخُ الْجَبَلِ ، الَّذِي ذاعَ اسْمُهُ فِي الْبِلادِ ، واسْتَفاضَ صِيتُهُ فِي الآفاقِ .

فَقالَ لَهُ الصَّيَّادُ : « صَدَقْتَ — يا سَيِّدِي الشَّيْخَ — فِيما قُلْتَ ، وإِنِّي مُقِرٌّ بِخَطَئِي ، مُعْتَرِفٌ بِذَنْبِي .

عَلَى أَنَّنِي لَمْ أُقْدِمْ — عَلَى فَعْلَتِي هٰذِهِ — إِلَّا مُضْطَرًّا . فَإِنَّنِي — كَما تَرَى — رَجُلٌ فَقِيرٌ بائِسٌ ، لا أَمْلِكُ فِي بَيْتِي دَجاجًا وَلا ماشِيَةً كَما ظَنَنْتَ . وَلَوْ كانَ عِنْدِي ما أَقْتاتُ بِهِ لَما رَوَّعْتُ هٰذِهِ الظَّبْيَةَ الوادِعَةَ الآمِنَةَ . وَلٰكِنَّ الْحاجَةَ تَدْفَعُ الإِنْسانَ إِلَى الْمَهالِكِ ، والْمُضْطَرُّ يَرْكَبُ الصَّعْبَ مِنَ الأُمُورِ ، وَلَوْ كَفَفْتُ عَنِ الصَّيْدِ وَالْقَنْصِ لَهَلَكْتُ جُوعًا ! » .

٧ – هَدِيَّةُ الشَّيْخِ

فَرَقَّ لَهُ قَلْبُ الشَّيْخِ، وَتَأَلَّمَ لِشَكْواهُ أَشَدَّ الأَلَمِ؛ فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ، يُهَدِّئُ مِنْ رَوْعِهِ، وَيُرَبِّتُهُ، وَيَقُولُ لَهُ:

«لا عَلَيْكَ – يا وَلَدِي – فَلَنْ تَلْقَى مِنِّي شَرًّا ولا أَذًى وَسَأَكْفُلُ لَكَ حَياةً هَنِيئَةً، وعِيشَةً رَغَدًا، بَعْدَ أَنْ تُعاهِدَنِي عَهْدًا وَثِيقًا عَلَى أَنْ تَتْرُكَ الْوُحُوشَ وادِعَةً آمِنَةً؛ فَلا تَمَسَّها بِسُوءٍ بَعْدَ الْيَوْمِ.»

ثُمَّ حَلَبَ الشَّيْخُ مِنْ لَبَنِ تِلْكَ الظَّبْيَةِ فِي صُنْدُوقٍ مِنَ الْخَشَبِ، وَصَبَرَ عَلَيْهِ قَلِيلًا حَتَّى أَصْبَحَ جُبْنًا، ثُمَّ أَعْطاهُ الصُّنْدُوقَ – بِما يَحْوِيهِ مِنْ جُبْنٍ – وقالَ لَهُ:

«هاكَ – يا وَلَدِي – طَعامَكَ الَّذِي تَنْشُدُهُ وتَسعَى إِليهِ؛ فاحْتَفِظْ بِهٰذا الصُّنْدُوقِ فِي بَيْتِكَ، وَكُلْ مِنْهُ ما تَشاءُ؛ فَلَنْ يَنْفَدَ هٰذا الزَّادُ مَهْما تَأْكُلْ مِنْهُ، مَتَى عاهَدْتَنِي عَلَى تَأْمِينِ الْوُحُوشِ.

وَاعْلَمْ أَنَّكَ إِذا أَخْلَفْتَ مَعِي وَعْدَكَ، نَفِدَ الزَّادُ، وَحَقَّ عَلَيْكَ الْعِقابُ؛ فَماذا أَنْتَ قائِلٌ؟»

فَشَكَرَ الصَّيَّادُ لِشَيْخِ الْجَبَلِ هَدِيَّتَهُ، وَقالَ لَهُ:

«أُقْسِمُ لَكَ — يا سَيِّدى — إِنِّى مُعاهِدُكَ عَلَى ذٰلِكَ، وَسَتَرانِى ثابِتًا عَلَى الْعَهْدِ حَتَّى أَمُوتَ. فَإِذا حَنِثْتُ فِى يَمِينِى، أَوْ نَقَضْتُ عَهْدِى، كُنْتُ جَدِيرًا بِالْهَلاكِ.»

٨ — فى الْوادِى

ثُمَّ عادَ الصَّيَّادُ إِلى مَأْوَاهُ، بَعْدَ أَنْ وَدَّعَ شَيْخَ الْجَبَلِ، شاكِرًا لَهُ صَنِيعَهُ وَمُرُوءَتَهُ، وَعاشَ زَمنًا طَوِيلًا يَأْكُلُ مِن ذٰلِكَ الصُّنْدُوقِ، دُونَ أَنْ يَنفَدَ ما فيهِ مِنَ الزَّادِ. وَكانَ يرَى ذٰلكَ الطَّعامَ الشَّهِيَّ مُتَجَدِّدًا سائِغًا، لا تَمَلُّهُ النَّفْسُ، وَلا يَضْجَرُ بِهِ الْآكِلُ.

وَكانَ فِى كُلِّ يَومٍ يَأْكُلُ مِنْ هٰذا الزَّادِ؛ فَيَسْتَمْرِئُهُ وَيَتَشَهَّاهُ، وَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ أَطْيَبُ طَعامٍ تَذَوَّقَهُ فى حَياتِه.

وَكَفَّ الصَّيَّادُ — مُنْذُ ذٰلِكَ الْيَومِ — عَنْ صَيْدِ الْوُحُوش؛ فاطْمَأَنَّتِ الظِّباءُ إِلَيهِ، وَوَثِقَتْ بِهِ، وَلَم تَعُدْ تَخْشَى مِنهُ شَرًّا وَلا أَذًى، وَأَصْبَحَتْ تَأْلَفُهُ وتُدانِيهِ، وَتَستَرسِلُ إِلَيهِ وادِعَةً آمِنَةً.

٩ — نَقْضُ الْعَهْدِ

وَذاتَ مَساءٍ رأَى الصَّيَّادُ ظَبْيَةً تُماشِيهِ؛ فَساوَرَهُ الطَّمَعُ، وَوَسوَسَ لهُ الشَّيْطانُ أنْ يَنْقُضَ عَهْدَهُ. وَلـكِنَّهُ ذَكَرَ ما قالَهُ شَيْخُ الْجَبَلِ، وَخَشِيَ وَعِيدَهُ؛ فَعدَلَ عَنْ فِكْرَتِهِ.

وَما زالَتِ الظَّبْيَةُ تَقْتَرِبُ مِنْهُ، وتَدُورُ حَوْلَهُ، حَتَّى أَغْرَتْهُ بِصَيْدِها، وَاشْتَهَتْ نَفْسُهُ أَنْ يَقْتَنِصَها، وَغَلَبَهُ الطَّمَعُ عَلَى أَمْرِهِ، وَأَنْساهُ الْعَهْدَ الَّذِى أَخَذَ نَفْسَهُ بِهِ؛ فَمَضَى يَنْقُضُهُ دُونَ أنْ يَتَدَبَّرَ الْعُقْبَى، وَيَحْسَبَ لَها حِسابًا.

أَجَلْ، نَسِيَ الصَّيَّادُ حِوارَ شَيْخِ الْجَبَلِ؛ فَصَوَّبَ سِهامَهُ إلَى الظَّبْيَةِ الآمِنَةِ فَقَتَلَها — مِنْ فَوْرِهِ — ثُمَّ أَسْرَعَ إلَيْها فَحَمَلَها إلَى دارِهِ، وَسَلَخَ جِلْدَها، وَأَخَذَ مِن لَحْمِها قِطْعَةً كَبِيرَةً فَشَواها وَتَعَشَّى بِها.

١٠ — الْقِطَّةُ السَّوْداءُ

وَلَمَّا ذَهَبَ إلى الصُّنْدُوقِ لِيَأْخُذَ مِنْهُ شَيْئًا مِنَ الزَّادِ، خَرَجَتْ

قِطَّةٌ سَوْداءُ ، لَها عَيْنانِ وَرِجْلانِ تُشْبِهُ عُيُونَ الرِّجالِ وأَرْجُلَهُم وَقَدِ الْتَقَمَتْ قِطْعَةَ الْجُبْنِ في فَمِها ، ثُمَّ قَفَزَتْ إلى النَّافِذَةِ مُسْرِعَةً فِي مِثْلِ لَمْحِ الْبَصَرِ .

• • •

وَمُنْذُ ذٰلِكَ الْيَوْمِ عادَ الْقَلَقُ إلى نَفْسِ الصَّيَّادِ ، وَساوَرَهُ الْأَسَى ، وَكادَ الْهَمُّ يَقْتُلُهُ ، وَنَدِمَ عَلَى فَعْلَتِهِ بَعْدَ فَواتِ الْفُرْصَةِ .

وَكَفَّتِ الظِّباءُ عَنِ النُّزُولِ إِلَى الْوادِي — بَعْدَ هٰذا الحادِث — وَاضْطُرَّ الصَّيَّادُ إلى مُطارَدَتِها فِي التِّلالِ وَالْهِضابِ .

١١ — مَصْرَعُ الصَّيَّادِ

وَمَرَّتْ — عَلَى ذٰلِكَ — سَنَواتٌ ثَلاثٌ كامِلَةٌ . وَجَرَى الصَّيَّادُ خَلْفَ ظَبْيَةٍ ، حَتَّى بَلَغا ذِرْوَةَ الْجَبل ، واسْتَقَرَّتِ الظَّبْيَةُ عَلَى الصَّخْرَةِ الْعالِيَة ، الَّتِي الْتَقَى فيها الصَّيَّادُ وَشَيْخُ الْجَبَل فيما مَضَى .

فَصَوَّبَ الصَّيَّادُ سِهامَهُ إلى الظَّبْيَةِ فَجَرَحَها ، وَما لَبِثَتْ أَنْ هَوَت إلى الْوادِي السَّحِيق . وَلَمْ يَكَدِ الصَّيَّادُ يَهُمُّ بِالنُّزُولِ إلى الوادِي لِأَخْذِ

تِلكَ الظَّبْيَةِ ، حَتَّى ظَهَرَ أَمامَهُ شَيْخُ الْجَبل ، وقالَ لَه :
كَيْفَ نَسِيتَ وَعْدَك ، وَنَقَضْتَ عَهْدَك ؟ »

• • •

فَخَجِلَ الصَّيَّادُ مِمَّا فَعَل ، وَتَمَلَّكَهُ الْفَزَعُ ، وَهَمَّ بِالْهَرَب .
وَلٰكِنَّهُ لَمْ يَكَدْ يَفْعَلُ ، حَتَّى ناداهُ شَيْخُ الْجَبَل ، وَكَرَّرَ اسْمَهُ مَرَّاتٍ ثَلاثًا . فامْتَلأَتْ نَفْسُ الصَّيَّادِ رُعْبًا ، حِينَ سَمِعَ النِّداءَ الثَّالِثَ ؛ وَصاحَ — مِنْ فَرْطِ الْخَوْفِ — صَيْحَةً عالِيَةً ، سَمِعَها أَهْلُ الْوادِى وَساكِنُوه . وَأَذْهَلَهُ الْفَزَعُ والرُّعْبُ عَنْ أَنْ يَتَماسَكَ فِى وَقْفَتِه ؛ فَزَلَّتْ قَدَمُه ، وَهَوَى — مِنْ فَوْرِه — مُتَرَدِّيًا فِى قَرارِ الْهاوِيَةِ السَّحِيقَةِ .

• • •

وَهٰكَذا لَقِيَ الصَّيَّادُ النَّاكِثُ الْعَهدِ جَزاءَ غَدْرِهِ أَعْدَلَ جَزاء ، وَعُوقِبَ عَلَى كَذِبِهِ أَشَدَّ الْعِقاب ، وَقَذَفَ بِهِ الطَّمَعُ إلى الْهَلاك .

القصة التالية : الشيخ الهندى

قطوفٌ من الآراء

في مكتبة الكيلاني للأطفال

« ... الأستاذُ الكيلانيُّ كعقربِ الثواني ، قصيرٌ ولكنّه سريعُ الخُطى ، مُنتجٌ ، يأتي بدقائقِ الأمورِ ... »

شوقي

« ... وهكذا نجحتَ — يا أستاذُ — في أنْ تُحبّبَ إلى الأطفالِ مكتبتَهمْ وتُغريَهمْ بالمطالعةِ ... »

أحمد لطفي السيد

« ... وتمتازُ تواليفُ الكيلانيِّ بالبساطةِ في التعبيرِ ، والصحّةِ في الألفاظِ ، والرقّةِ في التراكيبِ ، والدقّةِ في الأداء ، والسلاسةِ والسهولةِ ، معَ اجتنابِ كلِّ غريبٍ ونابٍ ، ومعَ توخّي التدرّجِ بالطفلِ .

هذا إلى الشكلِ الكاملِ ، حتّى يُؤْمَنَ الخطأُ ، والإكثارِ منَ الصُّوَرِ الجميلةِ المُغريةِ بالقراءةِ ... »

إبراهيم عبد القادر المازني

« . . . وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لِلأُسْتاذِ الْكِيلَانِيِّ إِلَّا أَنَّهُ الْمُبْتَكِرُ فِي وَضْعِ مَكْتَبَةِ الأَطْفالِ بِلِسانِ النَّاطِقِينَ بِالضَّادِ ، لَكَفاهُ فَخْرًا بِما قَدَّمَهُ لِرَفْعِ ذِكْرِهِ ، وَما أَحْسَنَ بِهِ إِلَى قَوْمِهِ وَعَصْرِهِ . . . »

خليل مطران

« . . . إِنَّنِي أُشْهِدُ اللهَ ، وَأُشْهِدُ أَمامَ خَلْقِهِ ، بِأَنَّ الرَّجُلَ الَّذِي انْتَهَتْ إِلَيْهِ حِكْمَةُ التَّرْبِيَةِ مِنْ طَرِيقِ كُتُبِ التَّعْلِيمِ هُوَ الأُسْتاذُ « كامل كيلانى » . وَسَتَشْهَدُ هٰذِهِ النَّهْضَةُ بِهٰذا يَوْمَ يَمُدُّ مَدُّها وَيَجِدُّ جِدُّها . . . »

البشير الإبراهيمى

« . . . وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَأْتِيَ الْيَوْمُ الَّذِي تَصِيرُ فِيهِ اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ سَلِيقَةً عِنْدَ مُتَعَلِّمِينا .

فَإِذا قُيِّضَ لَها ذٰلِكَ كانَ الْفَضْلُ راجِعاً فِي مُعْظَمِهِ إِلَى كُتُبِ الأُسْتاذِ الْكِيلَانِيِّ . . . »

دكتور على مصطفى مشرفة

« . . . أُهَنِّئُكُمْ بِهٰذا الْعَمَلِ الْمُبْتَدَعِ الْفَرِيدِ ، الَّذِي قُمْتُمْ بِهِ بِإِعْدادِكُمْ هٰذِهِ الْمَجْمُوعَةَ مِنَ الْكُتُبِ . . . »

دكتور ماكلاهن

قصص فكاهية

١ عمارة . ٢ الأرنب الذكى .
٣ عفاريت اللصوص . ٤ نعمان .
٥ العرندس . ٦ أبو الحسن .
٧ حذاء الطنبورى . ٨ بنت الصباغ .

قصص من ألف ليلة

١ بابا عبد الله والدرويش .
٢ أبو صير وأبو قير . ٣ على بابا .
٤ عبد الله البرى وعبد الله البحرى .
٥ الملك عجيب . ٦ خسروشاه .
٧ السندباد البحرى . ٨ علاء الدين .
٩ تاجر بغداد . ١٠ مدينة النحاس .

قصص هندية

١ الشيخ المندى . ٢ الوزير السجين .
٣ الأميرة القاسية . ٤ خاتم الذكرى .
٥ شبكة الموت . ٦ فى غابة الشياطين .
٧ صراع الأخوين .

قصص شكسبير

١ العاصفة . ٢ تاجر البندقية .
٣ يوليوس قيصر . ٤ الملك لير .

أساطير العالم

١ الملك ميداس . ٢ فى بلاد العجائب .
٣ القصر الهندى . ٤ قصاص الأثر .
٥ بطل أثينا . ٦ الفيل الأبيض .

قصص علمية

١ أصدقاء الربيع . ٢ زهرة البرسيم .
٣ فى الاصطبل . ٤ جبارة الغابة .
٥ أسرة السناجيب . ٦ أم سند وأم هند .
٧ الصديقتان . ٨ أم مازن .
٩ العنكب الحزين . ١٠ النحلة العاملة .

أشهر القصص

١ جلفر فى بلاد الأقزام .
٢ « فى بلاد العمالقة
٣ « فى الجزيرة الطيار
٤ « فى جزيرة الجياد
٥ روبنس كروزو .

قصص عر

١ حى بن يقظان . ٢ ابز

قصص تمثي

١ الملك النجار .

٢١٠٦٥٤

دار المعارف